بوشعيب الساوري وتجسيد جحيم العالم

عوالم موجعة من مقبرة الأحلام

إبراهيم الحجري

الرباط

اشتغلت الرواية على فضاء البادية مستندا إلى رؤية نوستالجية يعتريها الكثير من السؤال النقدي الذي يعري بشاعة الإهمال التي تتعرض له القرية؛ مما ينعكس سلبيا على الإنسان الحال فيها؛ الذي يحوله ظلمها وهشاشتها إلى مجرد كائن كسير تنحسر رؤاه عند حدود الخبز والغريزة مثل أي حيوان ضال

1 ـ أعتاب مغلقة :

أول ما يصادف القارئ، وهو يتأمل حواشي هذه الرواية وعتباتها، ذاك العنوان المفرد الذي اختار لون الدم كي يتميز وسط السواد الذي اتخذه الغلاف، وكأنه، بمعنى ما، يسعى إلى بث روح التحدي في ذاك الشبح الأنثوي الموثق إلى كرسي كي يشق العتمة المضروبة حوله، هاربا من صدأ ذلك الكرسي، وكي يكسر الأبواب الموصدة أمامه التي تحجب عنه نور الحياة. وهكذا يتحد معنى التحدي الموحى به من خلال مفردة العنوان؛ والعتمة التي يقررها لون الغلاف، واليأس المحال عليه من لدن الجلسة المستسلمة للكائن الأنثوي الهزيل على كرسي، وإعطائه بظهره للعالم وكأنه يخبئ بشاعة ما أو يستتر بجناياته خجلا من العالم، وانسداد الأفق الماثل على الباب المقفل...

تتحد هذه المشيرات كلها كي تمنح انطباعا أوليا يفترض وجود عوالم جحيمية في هذا النص الروائي، يقول الراوي: "أنّا حللنا نجد الظلام. الظلام يسبق وجودنا ويلحقه. الظلام وراءنا والظلام أمامنا. لا مفر! ظلام تحيكه أسئلة حارقة ومحيرة حول ما يجري فينا وحولنا. أسئلة تكبر معنا وتزداد التباسا وغموضا"1.

2 ـ نفحات بدوية :

تدور أحداث النص الروائي في قرية تدعى "كنيخ" المنتمية إلى سهل دكالة المغربي، وبالضبط على الحدود الجنوبية الشرقية لدكالة، وقد اختفى هذا الاسم بالتدريج ليأخذ المكان اسم حارسه (سيدي بنور) الصوفي الشهير الذي تخرج من مدرسة مشترائية العريقة، ويتسم هذا الفضاء، من خلال النص، بشعبيته وبساطة أناسه، وانفتاحه على الثقافة البدوية التي تحتفظ بطقوسها وأعرافها ومنظومتها القيمية، حيث تنتشر الأسواق الأسبوعية، وتهيمن اللغة العامية، والأجواء الفلاحية على الأمكنة والوجوه. وحتى بعد انتقال أسرة الشخصية ـ الراوي إلى المركز القروي، فإن الأجواء لم تتبدل، بل ظلت تماما ـ على حالها كما لو كانت ما تزال في دوار الكوارط الغريب الأطوار.

لقد باتت الطقوس البدوية، تحضر بقوة من خلال ذاكرة الشخوص ومحكيات الراوي الاستعادية التي تفصل في طريقة تحاور البدو مع بعضهم، وأساليب تواصلهم، وطقوس أعراسهم وأفراحهم ومآتمهم وشعائرهم الدينية والأسطورية وسذاجة نظرتهم إلى العالم وصورتهم حول المرأة والجنس والأبناء والإرث والموت؛ وعاداتهم في الطعام واللباس والنوم... وما إلى ذلك؛ مما يجعل المتلقي يجد نفسه منحسرا في أجواء بدوية عتيقة بما تحتويه من لذاذة ومأس، خاصة في زمن بدأت المدينة بأساليبها المعاصرة تجهز على الكثير من الطقوس البدوية.

اشتغلت الرواية على فضاء البادية مستندا إلى رؤية نوستالجية يعتريها الكثير من السؤال النقدي الذي يعري بشاعة الإهمال التي تتعرض له القرية؛ مما ينعكس سلبيا على الإنسان الحال فيها؛ الذي يحوله ظلمها وهشاشتها إلى مجرد كائن كسير تنحسر رؤاه عند حدود الخبز والغريزة مثل أي حيوان ضال.

3 ـ شخوص مهزوزة :

يغلب على شخصيات الرواية طابع الشقاء، حيث بدت، طيلة أطوار المحكي، تناور من أجل مقاومة موت يتربص بها من كل المناحي؛ في فضاء قاس يجعل منها مجرد أرقام بئيسة في معادلة الجحيم؛ تتبدل الأرقام، تكبر أو تصغر، تؤنث أو تذكر، لكن المغزى يظل واحدا هو النبذ والعراء والتشظي والموت البطيء الذي يستغل إنسانيتها، ويرمي بها خارج أنفاق التاريخ: فالشخصية الراوي التي تدون اعترافاتها وتاريخ أسرتها وسيرة صراعها مع جيوب الشر في كل الجبهات المفتوحة: (الأسرة اللامبالية؛ الصراع الآبد بين الوالدين؛ تدني القيم المجتمعية؛ الفقر؛ الدراسة؛ المشردين؛ المنحرفين الباحثين الملذات؛ الخوف الدائم من الاغتصاب...) لتسقط مهزومة أمام هذا الواقع بعد أن تعرضت للاغتصاب النفسي والجسدي، وانتزعت منها كرامتها وشرفها اللذان يجعلان منها إنسانة ومواطنة في غياب أية حماية مجتمعية. الشيء الذي الدنيا تسود في عينيها، فقررت أن تفتح تحقيقا وتكتب حكايتها المأساوية قبل أن تغادر الأسرة والقرية معا إلى الأبد. وتجسد هذه الحكاية/ الصرخة معاناة جيل النساء بأكمله، بل أجيال من النساء لا يدفئها سوى تاريخ نسيانها وسط غابة من اليأس والمعاناة، ولا يؤنسها إلا تاريخ من الإحباطات والخسارات والهزائم التي لاحقتها طيلة حياتها، فما عانته الشخصية الرئيسة ليس إلا صورة مصغرة لجحيم عاشته أجيال متلاحقة، وعاشته من خلالها خديجة ويزانة والداخلة ومن يجايلهن في عالم القرية الذكوري الظالم الذي يسود فيه منطق الأسرة البرطريقية والعشائرية الضيقة والنظرة الدونية للمرأة التي تختزلها في تلبية رغبات الرجل وإنتاج الأولاد الذكور والعمل الشاق في الحقول والبيوت... أما الشخصيات الأخرى التي تؤثث الفضاء الروائي فهي كائنات بئيسة تمتهن الجسد وتتمرد على القيم، وأغلبها سيق إلى التشرد والحمق والجنون والانحراف، بفعل واقع مر يقزم الإنسان.

4 ـ مرجعية فلسفية :

تهتبل الرواية هنا، المنظور الفلسفي، خاصة على المستويين السوسيولوجي والسيكولوجي؛ فغالبا ما تتأطر الأحداث والاعترافات بنظرات الكاتب إلى الوجود والحياة والواقع المجتمعي ودواخل الشخصيات المسهمة في بناء العوالم الروائية. حيث كان السرد يتوقفُ، عند كل تحول كارثي في مسار بناء الحدث والشخصية؛ ليفسح المجال أمام تدفق التحليلات الفلسفية لهذه التحولات؛ والتي تصدر عن الراوي الرئيس الذي يتخفى ويظهر بشكل تعاقبي ليؤدي هذه الوظيفة؛ وهذا ليس غريبا إذا ما علمنا أن التكوين الأساس للكاتب الذي تلقاه عبر مساره الأكاديمي قد أثر بشكل مباشر في تجسيد هذه الرؤية إلى العالم، حيث الوعي بممكنات البحث التاريخي في جسد المهمش والمنسي، وذلك، عبر إجراء حفريات في الذاكرة الجريحة، وتشريح الأسس والمنطلقات التي تتأسس عليها العلاقات بين البدو؛ ومنطق صراعهم مع الطبيعة والعالم من حولهم.

إن السرد المتخلل بالتأمل الفلسفي ينمُّ عن الرؤية النقدية للقيم المتوارثة، والتهميش الذي يطول القرى والمدن الصغيرة، مما يجعل الإنسان في هذه الفضاءات عرضة للضياع والتيه، وهو، في نفس الآن، تصور يدعو إلى إعادة النظر في الهوية الفردية لذات المثقف المنبثق عن فضاء الهامش (هامش القرية الظالمة) مثل قرية "كنيخ" الغاصّة بوحل المشاكل التي تطوق عنق الإنسان وتجعله بعيدا عن الحضارة، وعن القيم الإنسانية الرفيعة. حيث لا يتّسع المجال إلا للقمامات وجحافل الذباب والناموس والبعوض والكلاب الضّالة والمشرّدين والقمّارين والحشّاشين والحمقى والمسحوقين.

5 ـ حيل السّرد :

يتكئ السّرد في تبرمه من عقد السير ـ ذاتي على مجموعة من الحيل السردية ليوهم المتلقي بكون المحكي محكيا برانيا عن الذات، من صنع الخيال الشخصي للرواة، ومن هذه الحيل:

ـ اختلاق شخصية مؤنثة تحتل موقع الراوي وموقع الشخصية الرئيسة. فيما أن الكاتب مرجعيا ينحدر من المنطقة التي اتخذها العالم الروائي فضاء له، وهي المنطقة الجنوبية الشرقية لسهل دكالة المحددة عبر عدة مؤشرات منها: (امطل، سوق الجمعة، سيدي بنور، الفيلاج، حي بام، إع. فاطمة الزهراء، حمام الوردة، القائد، الكوارط...) وقد هجرها من زمان تحت ضغط ظروف الدراسة، فقد وضع خبرته الطفولية بأسرار المكان، وذاكرته المرجعية بالطقوس والأسامي، ومعرفته بعالم البادية وعلاقاته المتشابكة وطبيعة العيش القاسية في القرية، بين أيدي فتاة (الراوي ـ الشخصية)؛ وعدل مسارها السّردي؛ بحيث تنسجم مع رؤاه كفيلسوف ومحلل سوسيولوجي وسيكولوجي، وتوافق الرسالة المبتغاة من وراء هذا المحكي الروائي.

ـ تنويع الضمائر، والتنقل بين المحكي الذاتي (ضمير المتكلم) ومحكي الغير (ضمير الغائب)، والمحكي التوجيهي (ضمير الخطاب)، وهي مجرد تنويعات على محور الذات؛ مغزاها أن الشخوص، على اختلاف مستوياتها، تعاني في الهامش المهجور وتراوغ وعثائها كي تساير مأساتها في جحيم دنيوي مرعب اسمه البادية "هي حكايتي، هي حكاية رجل وامرأة شاء القدر، وشاءت تقاليد الحكاية أن يكونا أبي وأمي المتطرفين في إهمالي. هي حكاية مدينتي "كنيخ"2.

وقد نجح الساوري في خلق نصية منسجمة، تؤدي كل عناصر الخطاب فيها دورها؛ بحيث يبدو أن لا فرق بين العتبة والقفل والمتن والشكل والقناة.

1 ـ بوشعيب الساوري، إصرار، رواية، دار الألمعية للنشر والتوزيع؛ قسنطينة، الجزائر، ط. 1، 2011م، ص. 12.

التعالق بالمتنبي.. التذاكر بالكبرياء

زيد الشهيد

في تواليات جلاستنا الأدبية والمعرفية، وخلال لقاءاتنا الطويلة أو القصيرة اعتدتُ ألا أخفي حقيقة اهتمامي بالمتنبي وصرّحتُ كثيراً أنني مولعٌ به أيّما ولع. لم أُضمرُ الإعجابَ بجمال صوره الشعرية، ورجاحة جملته المتاعة وفصاحة شَجاعته المتلئة.

لم أُعب عَليه حَبَّه بنفسه، ولا إعلانه سمّوه المفرط فوق المعتاد.

أضع جملةَ أشعاره المكرّسة في مجموعة يضمّها غلافُ كتاب عنوانه (ديوان المتنبي) صادر عن " دار إحياء التراث العربي – بيروت " على رفٍّ يجاور الحاسوب الذي اتماهى مع شاشته السحرية وذاكرته التي كثيراً ما أعانتني على اصطياد رؤى دونتها وتركتها من غير أنْ تكتمل، وعنوانات كتبتُها وقلتُ سأعود إليها لتكون مفاتيحَ لمواضيعَ يستأنسُ لها المتلقي ويتطلّبها، مثلما تُشبع نزوعي في الإفضاء عنها والبوح بها، والانعتاق منها.

أتذكّر أنني اشتريتُ هذا الديوان وديوانين آخرين هما " ديوان عنترة " وديوان " لبيد " من عربات خشبية كانت تعرض الكتبَ وبأسعارٍ زهيدة جداً في شارع المتنبي في العاصمة بغداد أواخر الستينات يوم كنت في الحادية عشر من عمري لأكتب على صفحته الأولى بعد الغلاف الأول عبارة " من كتب زيد الشهيد " فانظم إلى أخوتي الثلاثة الذين يكبرونني ويضعون ذاتَ العبارة باسمهم كلما ابتاعوا كتابا وضمّوه إلى مجاميعَ الكتبِ التي تتراصف على رفوف الدواليب في غرفة نومنا.

للحقِّ أقول أنني وبذلك العمر لم أكنْ أعير اهتماماً لشعر المتنبي بقدر اهتمامي الكبير بما يطلقه عنترة.. لماذا ؟ !.. لأن عنترةَ شاعرُ الحبِ والفروسية ؛ ومَن من المزهوين بالحياة أمثالنا لم تعجبه هاتين الصفتَين ؟!..

ألم نكن ننطلق هفواً إلى دار " سينما الشعب " كلما دارت لافتةُ إعلان فيلم جديد في السوق الرئيس من مدينتنا – الغافية على الفرات أو الصاحية عند أطراف الصحراء – والتي كان يحملها العامل الذي يشتغل عند إدارة السينما فتشير إلى أفلام الفروسية العربية يوم كان سراجُ منير يمثل دور عنترة ومَن جاء بعده فريد شوقي ليمثل الدور نفسه فنعيش التذاذاً ونحن نرى عنترة يطيح برؤوس مبارزيه ثم يتجه لعبلة ليرمي على طاولة إعجابها كبارَ أفعاله وعُظمَ فروسيته وسيلَ بطولاته التي لا تَضاهى. وبعد أن يؤبَ إلى بيته وقد شبعت عَبلةُ من الكلام الرجولي الذي يقطرُ ثقةً وتباهياً وتستقبله أمّه زَبيبة بعين الفخر وأيضاً بقلب الخشية، يروح ينشد مختالاً :

ضحكت عبيلةَ إذْ رأتني عارياً // خَرِقِ القميص وساعدي مخدوشُ

المثنى

لا تضحكي مني عبيلة وأعجبي // مني إذا التفَّت عليَّ جيوشُ

ورأيت رمحي في الصدورِ محكّماً // وعليه من فيض الدّاء نقوشُ

إنّي لأعجبُ عازماً ومسائلاً // أنّى يراني فارسُ ويعيشُ

وكان إن ظلَّ هذا الولع بعنترةَ ومتابعة الأفلام التي تعرض المغامرات والفروسيات ليست العربية فقط إنما تعدّاها إلى الأجنبية منها فصرنا نتابع مغامرات " روبن هود " " و" القراصنة " و " أفلام الكاوبوي " و " هرقل الجبار " وخصوصاً عندما يمثله " ستيف ريفز... ولم نوارب أبواب المتنبي إلا عندما بدأنا ندخل زمن الطموحات الكبيرة بعيداً عن نزق الطفولة ومرح الصبا، فرحنا نردد صورَ الفخر الذي يصورها باعتداد يصل حدَّ الدنو من الملائكة :

أنا تربُ الندى وربُّ القوافي // وسِمامُ العِدى وغيظُ الحَسود

لا بقومي شَرُفْتُ بل شرفوا بي // وبنفسي فخرتُ لا بجدُودي

اعتدادٌ يتراجع عن قوله الآخرون خشيةَ أن يثيروا سخرية السامعين المنصتين لولا أنّه المتنبي الذي يصرُّ أمام الجموع على أنه النجم الأعلى سمواً، والأبهر إشراقاً، والأكثر جدلاً بين معجبيه وحاسديه على السواء :

أنامُ ملءَ جفوني عن شواردِها // ويسهرُ الخلقُ جرّاها ويختصمُ

وكنّا نتساءل باندهاش عن قوة شخصية هذا الرجل الذي يمتلئ فخراً بحيث يسمو على الآخرين حتى ليلغيهم فلا يترك لهم فسحةً من التباهي بأنفسهم. ونتحاور عن ماهيّة ثقته الكبيرة وكيف خلقَ البوحُ بها والكشفُ عنها أعداءً ضلّوا يناصبونه الحسد ويكيدون له للإيقاع بموهبته وتحطيم عنفوانه ؟

هذه القوة في الشخصية والاعتداد الخيالي والثقة الأسطورية كانت تزرقنا بإكسير الثقة بالنفس وتلهمنا بدافع أن لا نظهر ضعفاً أمام المواقف التي تبدو صعبةً ومعقدةً في نظرنا ونحن نجابه تحدّيات الشباب.. وعندما عرفنا إصالتَهُ، وقرأنا كبرياءَهُ، دخلنا عليه زائرين – عبر عالمه الشعري – متسائلين ونحن إزاءه عن سر السمو الذي يتناسل في مملكته الروحية رافعاً إيّاه إلى مراتب الخُلّاق الصادقين في بوحهم، المتميزين في عطائهم ؛ وسر تركَ جموع الشعراء خلفَهُ.

لحظات من الصمت والتأمل تقوده إلى التطلّع فينا فيبتسم، فيتنحنح، فيجول في نظرته الوسيعة على الوجوه.. فيرد : "

إذا اشتبهتْ دموعٌ في خدودٍ // تبيَّن مَن بكى ممَّن تباكي "

فنقف مشدوهين مُعجبين بحُسن إجابته، ونندهش مذهولين بالخزين الذي يحتفظ به ردّاً برقَياً على أيِّ تساؤل. وإذ يتبيّن هذا الإعجاب والاندهاش والذهول يجمعنا بنظراته التي تبعث على شيء من الأسى الدفين، ويتركنا نستحمُّ بشذا مفرداته التي تنضح بعضاً من المواساة على روحه والتصافي مع نظراتنا :

ماذا لقيتُ من الدنيا وأعجبهُ // أنّي بما أنا شاكٍ منه محمودُ

لم يترك الدهرُ من قلبي ومن كبدي // شيئاً تُتيّمُهُ عينٌ ولا جيدُ

وإذ يكتشف أننا على وشك أنْ نعلن تأسّينا يروح يستنهض همَّ النفس ويستدعي شلالات الاعتداد كأنّه لا يتعامل إلا مع مفردات الرِّفعة، ولا يقول غيرَ العلو. كأنَّ ما يقوله من أشعارَ انطباعُ ما يقوله روحه من فصاحة. حتى يبلغ به الأمر مراراً أن يُصرِّح استهانةً بمن ينافسونه أو يناصبونه الزمن لسرقةِ مكانتهِ الأدبية :

وما الدهرُ إلا من رُواة قصائدي // إذا قلتُ شعراً أصبحَ الدهر منشدا

فسارَ به مَن لا يسيرُ مُشمِّراً // وغنّى بهِ مَن لا يُغني مُغرِّدا

هذا المتنبي على صورته الظاهرة وفحواه الجوّاني يرسم لزمانٍ بشري. هو خلقٌ مؤثرٌ مستديم . هو ضياءٌ لا يعرف النضوب ولا يتخلّى عن الألق. هو الصانع لأيقونة الزمن المحفور نحتاً على جدارِ الذاكرات الإنسانية...

الغريب أنَّ قروناً مرّت، وعقود عَدت ؛ وتوالت أعوام لكنَّ أصابعَ تتبعنا لم تلامس مَن جاء يشبهه في الخلق والكبرياء والنهوض المبني على اللاخشية من الأقدار والأحداث باستثناء بوشكين شاعر روسيا الذي قَدِم بعد زمن بعيد والذي كان يحمل كما يبدو ذلك الفوران العربي الصائل الجائل في دماء الشرايين والقلب الراهص. هذا الذي كلّما ذكرنا المتنبي بتنا نتذكره ؛ وكلما تقدّمَ (هو) إلى ذاكرتنا تقدّم عليه المتنبي. حتى لكأننا نراهما الصنوان أو الشقيقان التوأمان لولا الفارق الزمني الذي يقفز فوق الثمان قرون.

(2)

يتقدّم المتنبي على الشعر، أو أن الشعر يُسابق المتنبي للتقدم عليه. وهما في هذا صنوان نلاحقهما بلهفاتنا التائقة إلى العذوبة من الكلمات المسكوبة في بوتقة الشعر. ونحن في ذلك عُشّاق يضرمنا أوارُ الروح المتطلّع لقمم الذرى فنصاحب نظراته الشاخصة إلى أعلى مُتخلّين عن السفوح ؛ ذلك أنَّ الأملَ كبيرٌ والمغامرةَ لها مبررات التحرك من أجلها ؛ وكلماته المؤرجة بالعزم لا تفارق ذاكرتنا. هي تتقدمنا في كلِّ خطوٍ وتحدونا في أيِّما مسار ؛ سامعين نداءه الضارب في البطاح والبراري وسوح الطموحات :

إذا غامرتَ في شرفٍ مرومٍ فلا تقنع بما دونَ النُّجوم

وفي لحظات بعث الحزن، وتحرك جيوش الآلام. وفي ساعة الشعَور بهجوم الضجر، والإحساس بعبثية الحياة يفاجئك المتنبي بصرامته وصلابة دواخله، يواجهك بتعاليه على قسوة المواقف واستهانته بفخاخ التقهقر التي ينصبها القدرُ في وجه التطلُّع. وتسمعه يخاطبك مليئاً بحكَم العالم الذي ينثر ورود كلماته مضمخة باشذاء القناعة بالموجود، والرضا بالحاصل، وتوقّع ما لا يُتوقَّع :

" قد ذقتُ شدَّةَ أيامي ولذَّتها // فما حصلتُ على صابٍ ولا عسلِ ".

شعرُ المتنبي أيقونةٌ تُمشهدُ فعلَ التاريخ وأحداثه، مؤرخةً للمكان وجوده وما دارت عليه من إرهاصات وأفعال في حقبة تاريخية قلقة لأمّة قاربت التفكك من داخلها وأبصرت الأعداء (الروم) من خارجها (شمالا) يتربصون حيان السُّنحة الزمنية للانقضاض. فيأتي هذا الشعر مزحوماً بالتأرخة للاجيال من جهة ودافعاً تشبثياً بالأرض حيثُ بثُّ الزخمُ في النفوس لإبقاء الشعور متوحّداً مع هذه الأرض كهوية لا يمكن إهمالُها أو التخلّي عنها. وكان إن نهضَ هذا الشعرُ بدوره فكان مُحمّساً للمقاتلين وهم يصدّون عواصفَ الغَزوات، ويتنادون للإطاحة بهيبة المتربصين.

(3)

ديوانُ المتنبي ذائقةٌ غريبةٌ عذبةٌ متممةٌ لسيرة الذائقة التي يجاهد المتلقي الولهُ بالشعر أن يواصلها بالقراءات الطويلة لجعلها تدنو من ذائقته..

شعرُ المتنبي لغةٌ بحدِّ ذاتها.. تمنحكَ القدرةَ على الوقوف في حومة التباري لتخرج أديباً ! بل وتخرج بقوام المتقدمين صَوب عَليّة الأدب الرصين والثقافة المعرفية المُعتدُّ بها.

في شعر المتنبي تصاحبُ موارَ ذاكرة بصرية قدمت من تمازج ضجيج الذات تفاعلاً مع الحسّي المكين ؛ وهو بهذا يتضافر لديه التفرّس بالمكنون، والظاهر بالجوهر، والإدراك بالتلمُّس. ومن هنا زرع هذا الشاعر من خلال نفثاته الشعرية في نفوس المتلقين بوادرَ حدس متفاقم يجعله لا يتراجع أمام مهيمنات النكوص، بل دوافعَ زخمٍ باتجاه الأمام. لذا تراه يعلو على الجراح وهو في أعلى ذرى الألَم ؛ ويناصب الخنوع العداء حتى ينتصر عليه فَخيراً بالأنوية المتعالية، وقديراً بالقولِ الكبير ؛ لكأنّهَ يدعونا إلى اقتفاء أثره وحمل معانيه والتمثّل بخصاله كقوة من قوى الكبرياء. لكأنه الـ (نحنُ) الذين نروم، والـ (هو) الذي نتمنى.

الآخر... وداء الشرق العضال

وديع شامخ

سيدني

الحياة نهر يجري وعجلة الزمن تتقدم الى الأمام، لا عودة الى الوراء، لاتوقف لرقاص الساعة... كما أن الحياة ليس مقوسة بين " مزدوجين " وغير مجيّرة لأحد، لكلّ منّا حصته المنصوص عليها زمنيا ومكانيا ووفقا لاستحقاقات قانونية، إجتماعية وأخلاقية.. لا حق لأحد بسرقة حصة الآخر في الهواء والماء والأرض والشمس...

لا أحد له الحق في فرض قوانينه ونظامه .. الحياة قمة تتسع لكلّ المتسلقين.. فيها من التباين والإختلاف والإندماج والتناغم والتباعد والتقارب..

فالبعض يرى أن الحياة جهاد لفرض الرأي وكما جاء في أحد قصائد الشاعر احمد شوقي الذي يقول " قف دون رأيك في الحياة مجاهدا إن الحياة عقيدة و جهاد "

ومثل هذا النمط سنرى الكثير ممن يعتقدون الحياة كوة صغيرة في جدار عقائدهم ورؤاهم فقط.

بينما يرى آخرون الحياة هي أن تعيش يومك بكل بهائه، كما يرى غوته " لنبدأ الحياة كل يوم من جديد كما لو أنها بدأت الآن " وبهذا الانتصار للحاضر تصبح الحياة اكثر مرونة في الإنطلاق الى آفاق رحبة دون سجون وقيود مرهونة بماض تليد أومجيد.

ولكن الحقيقة الأكيدة، إن للحياة منطقها الواسع وأفقها المتعدد وطيفها الملوّن.

كما أن الحياة ليست بهذا الطراز المبهج دائما، فهي تعب وجد ونضال ومعاناة حتى يتمنى المرء احيانا مغادرتها سريعا. أو الشكوى من التشبث بها كما جاء على لسان الشاعر الفيلسوف " ابو العلاء المعري" بقوله :

"تعب الحياة كُلها فما أعجب إلا من راغب في ازدياد"

تلك هي الحياة ونواميسها وناسها.

.....

الآخر في الحياة

مثلما تحمل الحياة تنوعها وقوس قزحها، يأتي الآخر حاملا هوياته المتنوعة، حاملا روحه وعقله وضميره، ليرسم خارطة للتعايش معك " أنت "، فكيف يبدو لك هذا الآخر ؟؟

هل هو جحيمكَ.. فردوسكَ، أم مطهرك؟؟

تلك ثلاثية من المناخات والأمزجة قد َصنفت الآخر مسبقا دون الخوض معه في صناعة أفق مشترق لحياة تحمل في ثناياها آفاقا واسعة للألتقاء.. فالقواسم المشتركة بين بني البشر أكثر بكثير من الإختلافات لو أُحسن التعامل مع الظاهرتين ..

فالمشترك والمختلف هما قطبا الحياة المتوازنة.. دون إختلاف بناء ننتج أشباه كائنات، مسوخاً، مُقلدين، مُريدين، أفاكينً.. وأبواق شائعات..

كما أننا دون مشتركات سوف نصبح قطائع حيوانية في مملكة الإنسان المتوحش.. فالآخر صنوك..، الرفيق، الحبيب، الزوجة، الأخ، الصديق.. المكان..

الحياة ليست شهوة نركبها لحظة ونغادرها وهي ليست موجة نتحاشها ونحن نبحر في قوقعة ذواتنا المنغلقة..

.....

الآخر في مرآتك

في درس" نرسيس" نرى ضبابية ونزوع طفح الذات البشرية برائحتها الكريهة نحو الآخر.. لاشيء في محيط " نرسيس" سوى ذاته المنتفخة في سراب الماء.. وهكذا غدت " النرجسية " مرضا نفسيا خطيرا خرج من حقل الإحتفاء بالذات الى حقل تحطيم الآخر وإقصائه ومحوه..

المرآة الذي أعني هي رمز لمعيار الكائن الذي من خلاله" يزن" وينظر للأخرين ويحاكمهم..لانه لا يرى سوى هويته الغالبة وسحنته السائدة وقوامة المنتصب، وعقيدتة المهيمنة، وخطابه الأوحد.

كان " اينشتاين " العالم الفيزياوي الكبير يرى أن " وحدها الحياة التي يحياها المرء من أجل الآخرين هي حياة ذات قيمة"، و "فولتير" يقول "قد أختلف معك في الرأي ولكنني على استعداد أن أموت دفاعًا عن رأيك."

ولكننا مصابون بداء الشرق العضال، داء سرطاني، أميبي.. لاشفاء منه إلا بأستئصال حاضناته ومغذياته الفكرية والإجتماعية والأخلاقية والسياسة...

علينا تحطيم مرآتنا.. وهدم آبار نفوسنا الصفراء..

الآخر الشريك.. الآخر الصانع. الآخر الندّ.. الآخر المختلف.. هو السبيل النموذجي لبناء حياة قابلة لرؤية آخر في عين مليئة بالحب.

.....

خاتمة

للحياة غايات وأهداف لا ُتختصر برغبة ونزوة إقصائيتين في التعامل مع الآخر.. ولا هي دعوات مجانية على أن الحياة الحقيقية موجودة في مكان آخر.. وأن النأي عنها والزهد بها هو المجد.

الحياة إبنة المخلصين لها .. الذين لهم سلسلة متواصلة من ماضيهم وحاضرهم الى مستقبلهم.. الحياة لا يحتكرها أحد أو عقيدة، ولا تسعى الى الإنتقام.. إنها ابنة المحبة.. ولكنها أيضا تملك ذاكرة باشطة، لا تسمح لخفافيش الظلام أن يُعرشوا على أشجارها الباسقة، ولا لحناجر النشاز ان تتخذ من قصبها "نايات" للعزف على مقامة الموت دائما ..

الحياة فعل وليست ردة فعل، صوت وليست صدى، أفق وليست جدار.. الحياة منطق وليست نزوة.. الحياة حقل خصب ومدار للبذار وساحة للجدل الفعّال..

الحياة نهر لا نعبره مرتين.. لحظة إنجاز لا يمكن تكراراها بنمط محدود..

غير هذا تكون.. كما يقول شاعرنا

لقد أسمعت لو ناديت حيا ×× ولكن لا حياة لمن تنادي ×

كان اينشتاين العالم الفيزياوي الكبير يرى أن وحدها الحياة التي يحياها المرء من أجل الآخرين هي حياة ذات قيمة، و فولتير يقول قد أختلف معك في الرأي ولكنني على استعداد أن أموت دفاعًا عن رأيك.
ولكننا مصابون بداء الشرق العضال، داء سرطاني، أميبي.. لاشفاء منه إلا بأستئصال حاضناته ومغذياته الفكرية والإجتماعية والأخلاقية والسياسة...